الاقتباس والتضمين (التناص) في رسالة أبي عبدالله الصغير الموسومة بـ (الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى سلطان فاس)

■ د. فتحية محمد عبدالحميد سليمان *

● تاريخ استلام البحث 2022/11/10م ● تاريخ قبول البحث 2022/12/19م

■ **الملخص :**

تتناول هذه الدراسة ظاهرتي الاقتباس والتضمين في رسالة أبي عبدالله الصغير التي بعث بها إلى سلطان المغرب، والموسومة بـ «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس»، وهي من إنشاء كاتبه أبي عبدالله العقيلي، وموضوع الرسالة الذي من أجله أُنشئت هو الدفاع عن السلطان أبي عبدالله الصغير وتبرئته من تهم الكفر والإلحاد والتواطؤ مع النصارى، وبيع البلاد لهم مقابل بعض المنح والامتيازات الشخصية، ومحاولة إقناع سلطان المغرب، بأنّ كل ما حدث بغرناطة مرده إلى القضاء والقدر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد وجد الكاتب في الاقتباس من القرآن الكريم والسنّة النبوية خير معين على تأكيد معانيه وأفكاره، كذلك كشفت نماذج التضمين في رسالته عن قدرة كاتبها على الإفادة من تجارب الشعراء السابقين، فهو لم يخرج بها عن السياق الذي قيلت فيه، لذلك جاءت متناسقة مع سياق الرسالة تناسقًا تامًا، كما نجح في توظيف الأمثال والأقوال المأثورة والأحداث التاريخية لدعم كلامه وتعزيز الأفكار التي يلقيها لإقناع المرسل إليه.

● **الكلمات المفتاحية:** الاقتباس، التضمين، أبو عبدالله الصغير.

■ **Abstract:**

This study deals with the phenomena of quotation and implication in the letter of Abi Abdullah Al-Saghir, which he sent to the Sultan of Morocco, which is titled "Al-Rawd Al-Atir Al-Nafas fi Tawassul to the Master, the Imam

* أستاذ مساعد- بقسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة عمر المختار E-mail: fathia.mohamed@omu.edu.ly

Sultan of Fez." It was created by its writer, Abi Abdullah Al-Aqili. Morocco and the defense of the young and his acquittal of charges of blasphemy and atheism and collusion with the Christians and selling the country to them in exchange for some grants and personal privileges, and trying to convince him that everything that happened in Granada is due to the judiciary and fate, so what God willed was and what he did not want was not, and the writer was found in quoting from the Qur'an The Noble Qur'an and the Prophet's Sunnah are a good helper in emphasizing its meanings and ideas. The inclusion models in his letter also revealed the ability of its writer to benefit from the experiences of previous poets, as he did not deviate from the context in which it was said, so it came in complete harmony with the context of the message, as he succeeded in employing proverbs. And aphorisms and historical events to support his words and reinforce the ideas he delivers to convince the addressee.

● **Keywords:** Quotation, Inclusion, Abu Abdullah al-Saghir.

■ مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

تحاول هذه الدراسة أن تقف على ظاهرتي (الاقتباس والتضمين) في رسالة السلطان الغرناطي أبي عبدالله الصغير التي بعث بها إلى سلطان المغرب، والموسومة بـ«الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس»، وهي من إنشاء كاتبه ووزيره أبي عبدالله العربي العقيلي، وموضوع الرسالة الذي من أجله أُنشئت هو تبرئة أبي عبدالله الصغير، مما نُسب اليه من تهم الخيانة والكفر والإلحاد والتواطؤ مع النصارى ضد المسلمين وبيع البلاد لهم مقابل المكاسب الدنيوية قصيرة الأمد، وكانت عدة العقيلي وسلاحه في الدفاع عن مولاه الصغير وتبرئته أسلوبي الاقتباس والتضمين لما لهما من أهمية بالغة في تقوية المعنى الذي يطرحه وتأكيده.

ويبدأ هذا البحث بتمهيد تاريخي يتناول التعريف بالسلطان أبي عبدالله الصغير وظروف تسليمه غرناطة لملكي قشتالة، ومن التمهيد انتقلت الدراسة إلى وصف رسالة

الروض العاطر الأنفاس لتدخل إلى موضوع البحث الرئيس، وهو الاقتباس والتضمين (التناص) في رسالة الصغير، ليُختم بخاتمة تلخص أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

وستعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي، وكذلك المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على رصد ظاهرتي الاقتباس والتضمين وتحليلهما للوصول إلى النتائج المتوخاة من هذه الدراسة.

■ **سبب اختيار الموضوع:**

يكمنُ سبب اختيار هذا الموضوع في ثراء هذه الرسالة بأسلوبي الاقتباس والتضمين اللذين استخدمهما الكاتب استخدامًا فنيًا رائعًا له غايته ووظيفته.

■ **أهمية الموضوع:**

تكمنُ أهمية الموضوع في أسباب اختياره.

■ **الدراسات السابقة:**

لم يسبق لموضوع الاقتباس والتضمين أن يدرس في رسالة الروض العاطر الأنفاس، على حد علمي والله أعلم، وإن كانت هناك بعض الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الاقتباس والتضمين (التناص)، اطلعت عليها الباحثة واستفادت منها وفي مقدمتها:

1. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، دار التنوير، بيروت، ط1، 1985م.
2. أحمد الزغبي، التناص نظريًا وتطبيقًا، مكتبة الكتابي، الأردن، 1995م.
3. إبراهيم منصور الياسين، تجليات التناص في الرسالة الجدية لابن زيدون، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 42، العدد 3، لسنة 2015م.

● **التعريف بالسلطان أبي عبدالله الصغير وظروف تسليم غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس:**

انحصر الوجود العربي في الأندلس منذ أواسط القرن السابع الهجري في الجزء الجنوبي من الأندلس القديمة، حيث قامت مملكة غرناطة تحت حكم الأسرة النصرية

من (635هـ1237-م) إلى (897هـ- 1492م)، على أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى في إسبانيا، وقد تمتعت هذه المملكة بالرغم من صغرها بكثير من عناصر القوة والحيوية، ففي الوقت الذي خُيّل فيه لإسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية، كانت بذور صراع طويل الأمد تنمو وتتوطد وإذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية مرحلة جديدة من النضال استطالت زُهاء قرنين ونصف من الزمان، وانتهت بتسليم مفتاح غرناطة لملك إسبانيا على يد آخر ملوك بني الأحمر، وهو أبو عبدالله محمد الصغير[1]، المعروف عند المؤرخين المغاربة بـ» الزغبي»، أي المشؤوم، وعند الإسبان بالصغير تمييزًا له عن عمه أبي عبدالله الزّغل[2].

تربع الصغير على عرش غرناطة سنة 887هـ بعد حرب أهلية ضد أبيه السلطان أبي الحسن وعمه أبي عبدالله الزّغل[3]، وكان الصغير قد اعتزم بعد توليه السلطة أن يحذو حذو عمه الزَّغل في الجهاد، فخرج في قواته عام 888هـ1483-م متجهًا نحو قرطبة واجتاح عددًا من الحصون والقلاع وهزم النصارى في عدة معارك محلية، ثم ارتدّ مثقلاً بالغنائم فأدركه النصارى في طريق عودته في ظاهر قلعة اللسانة (Lucena)، ودارت معركة هائلة قُتل فيها وأُسرَ كثيرٌ من المسلمين وقاداتهم وفرسانهم، وكان من بين الأسرى السلطان أبو عبدالله نفسه[4]، فارتاعت غرناطة لهذه النكبة واضطرب الشعب واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء السلطان أبي الحسن ليجلس على العرش مكان ولده الأسير، لكنه لم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلاً؛ بسبب مرضه وفقدانه البصر فنزل عن العرش لأخيه أبي عبدالله الزَّغل حاكم مالقة[5].

أما السلطان المأسور أبو عبدالله الصغير، فقد بذلت أمُّهُ السلطانة عائشة الحرّة مجهودًا كبيرًا لإنقاذه بمؤازرة الحزب الذي يناصره، وأرسلت إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ليفاوض في الإفراج عن الملك الأسير مقابل الشروط التي يرضاها، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بتوقيع معاهدة سرية تتخلص نصوصها في «أن يعترف أبو عبدالله بطاعة فرناندو وزوجه الملكة ايزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر دوبلاً من الذهب، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في

غرناطة يختارهم ملكهم ثم يطلق بعد ذلك في كل عام سبعين أسيرًا لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم أبو عبدالله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضمانًا بحسن وفائه، وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عن أبي عبدالله فورًا، وألا يُكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه المدن متى تمّ فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير[6].

تبوأ أبو عبدالله الصغير عرش غرناطة عقب عودته من الأسر بنحو عام، لكنه لم يكن يحكم سوى مملكة صغيرة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته، فقد أسهمت الحروب الأهلية والمؤامرات والفتن في تمزيق مملكة غرناطة، وانقسامها إلى شطرين؛ شرقي يحكمه الأمير أبو عبدالله الزغل وعاصمته وادي آش، وغربي تابع لأبي عبدالله الصغير وعاصمته غرناطة، وكان أبو عبدالله الصغير أميرًا ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر، (وكان المُلكُ غايته يبتغيه بأي الأثمان، وقد ألفى ملك قشتالة في ذلك الأمير الضعيف الطموح أداة طيعة يوجهها كيفما يشاء لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها، وليقنع المسلمين بأنّ الصلح مع قشتالة خير وأبقى)[7]، ومضى ملك قشتالة في تحقيق خطته للقضاء على البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس، فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها الزّغل؛ لأنه كان في صلح مع غرناطة يمتد إلى عامين، فقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء؛ ولأنه أراد أولاً أن يعزل غرناطة، وأن يطوقها من كل صوب[8]، فزحف فرناندو على مالقة واستولى عليها عام 892هـ، ثم استولى في العام نفسه على المنكب والمريّة، ثم على بسطة عام 895هـ، ثم قصد وادي آش آخر معقل للزغل الذي رأى رغم شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل، وانتهى إلى الإذعان والتسليم[9]، فدخل فرديناندو وادي آش في صفر 895هـ، ثم جاء دور غرناطة فبعث فرناندو في العام المذكور إلى أبي عبدالله الصغير يطلب منه تسليم الحمراء والبقاء في غرناطة في طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزّغل، ويخبرنا صاحب كتاب نبذة العصر، وهو رجل معاصر لأحداث حصار غرناطة وسقوطها عن تواطؤ الصغير مع ملك النصارى

حرصًا منه على ضمان ممتلكاته وامتيازاته، فيقول: (وفي سنة خمس وتسعين وثمان مئة، بعث ملك النصارى إلى صاحب غرناطة أن يعطيه مدينة الحمراء وما قطع الوادي لجهة الحمراء في غرناطة، ويترك للأمير المذكور محمد بن علي سائر البلد، والدخول في ذمته، كما دخل سائر الأندلس، وظنّ أنّ ذلك يتم له، فخرج صاحب قشتالة فرحًا مسرورًا بمحلته ليقبض مدينة الحمراء وغرناطة... فلما بلغ الخبر بخروج صاحب قشتالة، وأنه قادم عليهم ... جمع أمير غرناطة محمد بن علي خاصتهم وعامتهم وأخبرهم بمـراده... فأجمعوا أمرهم كلهم على قتاله ومدافعته عنهم)[10]، وحُمِلَ أبو عبدالله بعزم شعبه من الاستكانة والمهادنة إلى التحدي والمقاومة، وهنا يبدو لنا أبو عبدالله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والخضوع الذي يدنو إلى الخيانة لتتشح بثوب من العزة والكرامة والحمية الدينية والوطنية[11]، فخرج في قواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة، وثار أهل البشرَّات وما حولها على النصارى، ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون واستردوا كثيرًا من الحصون والقرى في تلك المنطقة (أواخر سنة 895هـ)، وعاد أبو عبدالله إلى غرناطة ظافرًا، وانتعشت قلوب الغرناطيين نوعًا بذلك النصر، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم عن دينهم ووطنهم، فغضب فرناندو لتلك المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، واعتزم أن يقوم بضربته الحاسمة فخرج في ربيع 896هـ في جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة، وسار إلى غرناطة ونزل بمرجها الجنوبي، وأنشأ لجيشه في تلك البقعة مدينة صغيرة سانتا في (شنتفي)، أي الإيمان المقدس رمزًا للحرب الدينية[12]، وبدأ حصار غرناطة في جمادى الآخرة سنة 896هـ (1491م)، واستمر سبعة أشهر متواصلة، قلّ فيها الطعام وأدرك الناس الجوع، فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة، وساروا إلى أميرهم أبي عبدالله الصغير وأعلموه بحال الناس، فاتفق رأي الجميع من الخاصة والعامة على وجوب التسليم[13]، ويغمز صاحب كتاب نبذة العصر بتواطؤ الصغير وحاشيته مع النصارى: يقول: (زعم كثير من الناس أنّ أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدّم بينهم وبين ملك النصارى النازل عليهم الكلام في إعطاء البلد، إلا إنهم خافوا من العامة، وكانوا يحتالون عليهم ويلاطفونهم، فحين أتوهم بما كانوا أضمروا عليه أسعفوهم من حينهم، ولأجل ذلك قطع عنهم الحرب في تلك المدة المذكورة

حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكًا مع العامة)[14]، كذلك لمح المقّري بهذه الخيانة بعبارة منمقة بعض الشيء قائلاً: (وشاع أنّ الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفًا على نفوسهم وعلى الناس)[15]، وقد أكّد الأستاذ: محمد عبدالله عنان هاتين الروايتين بما نقله عن المراجع والوثائق القتشالية[16].

استمرت المفاوضات بين أبي عبدالله الصغير وملكي قشتالة بضعة أسابيع، وكانت تتم بسرية تامة بطلب من أبي عبدالله حتى تحقق غايتها المرجوة، وذلك خشية من انتفاض الشعب الغرناطي وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة التسليم التي وقعت في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة 1419-21 محرم سنة 897هـ[17]، وقد تضمنت هذه الوثيقة شروطًا عدة بلغت ستا وخمسين مادة، اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال وسائر الحقوق المادية وصون الدين والشعائر والكرامة الشخصية[18].

وفي الوقت الذي كانت تجرى فيه مفاوضات التسليم عُقِدت معاهدة سرية أخرى مُنِحَ بموجبها أبو عبدالله الصغير وأفراد أسرته وحاشيته ضياعًا وأموالاً وذخائر متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها[19]، وقد جاءت نصوص هذه المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية من ريب وشكوك تحيط بموقف أبي عبدالله ووزرائه وقادته، وإليك بعضًا من هذه المنح والامتيازات التي أُعطيت لملك غرناطة بموجب هذه المعاهدة: (أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبدالله وأولاده وأحفاده وورثته حق الملكية الأبدية فيما يملكانه من محال وضياع في بلاد برجة ومرشانة ولوشار... وبضعة بلاد أخرى مجاورة، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها، وباعتباره في الوقت نفسه تابعًا وخاضعًا لجلالتيهما...)[20]، لقد كشفت هذه الوثيقة عن الثمن الذي قبضه أبو عبدالله الصغير مقابل تسليم غرناطة، وتسربت أنباء هذه المعاهدة السرية وسرى الهمس بين العامة، فاضطرم سواد الشعب بأسًا وسخطًا على قادته، ولاسيما أبي عبدالله الصغير الذي اعتبر مصدر كل مصائبه

ومحنه، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة[21]، فما كان من أبي عبدالله إلا أن طلب تقديم التسليم خمسة أيام[22]، وغادر أبو عبدالله غرناطة ساعة استيلاء النصارى عليها، وسار مع أهله وصحبه إلى البشرات واستقر هناك في بلدة أنْدَرَش، وهي إحدى البلاد التي أُقطعت له في تلك المنطقة ليقيم فيها في ظل ملك قشتالة وتحت حمايته، وأنشأ لنفسه بلاطًا صغيرًا، وكان كما تذكر الرواية القشتالية يعيش هنالك في ترف ورغد يقضي معظم أوقاته في الصيد، ويجوب أطراف مملكته فوق جواده[23]، ويبدو أنه لم يكن يجد أية غضاضة في ذلك الوضع المهين بين ظهراني المشركين، كما ادعى في رسالته التي بعث بها إلى المغرب، فقد عاش في ترف ورغد ومارس هواياته، غير أنه لم يهنأ بذلك الترف طويلاً؛ إذ سرعان ما طلب منه ملكا قشتالة العبور إلى المغرب في موعد أقصاه شهر أكتوبر سنة 1493م، بعد أن تنازل عن سائر ضياعه في أندرش وغيرها، وكذلك عن أملاكه في غرناطة للملكين القشتاليين نظير ثمن إجمالي قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالي (كاستليانو)[24].

ركب أبو عبدالله الصغير البحر ونزل بمليلة، ثم قدم إلى فاس وتقدَّم إلى سلطانها الشيخ أبو عبدالله الوطاسي[25] برسالة معتذرًا عما أسلفه، وهي من إنشاء كاتبه أبي عبدالله محمد بن عبدالله العُقيلي[26]، وسماها (بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس)[27]، تتألف هذه الرسالة من قسمين؛ قسم شعري يتألف مما لا يقل عن مائة بيت، وقسم نثري يبسط موضوع القصيدة ويتممه، وهو تبرئة سلطان غرناطة مما نُسب إليه من تهم الخيانة والتفريط في حق الدين والوطن مقابل الرشاوى والمنح والامتيازات، اتكأ فيه الكاتب على أسلوبي الاقتباس والتضمين اللذين كانا سلاحه ووسيلته في الدفاع عن الصغير، وإثبات براءته مما نُسب إليه من تهم وريب.

الاقتباس والتضمين (التناص) في رسالة الصغير الموسومة بـ (الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس)

قبل أن نبدأ بدراسة الاقتباس والتضمين في رسالة الصغير، يجدر بنا التعريف بهذين المصطلحين، فالاقتباس في اللغة مأخوذ من لفظة قبس التي تعني (الشعلة من الناس)[28]،

أما في الاصطلاح: (فهو أن يُضمَّن الكلام شيئًا من القرآن والحديث لا على أنه منه)[29]، والتضمين في اللغة (مأخوذ من ضمّن وضمّن الشيء أودعه إياه، كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر وكل شيء جعله في وعاء قد ضمنه إياه)[30]، وفي الاصطلاح هو أن يضمن الشعر شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه، إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء[31]، ويعرفه ابن رشيق بقوله: (فأما التضمين قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم، فتأتي به في آخر شعرك أو وسطه كالمتمثل)[32]، وفي النقد الحديث دخل مصطلحا (الاقتباس والتضمين) تحت مصطلح (التناص) عند أكثر النقاد؛ بمعنى دخول النصوص بعضها في بعض، سواءً أكان ذلك عمدًا وقصدًا، أم من فيض العقل الباطن[33].

استهلّ أبو عبدالله الصغير القسم المنثور من رسالته بعد الديباجة المعهودة من التصلية على النبي – عليه أفضل الصلاة والسلام-، وعلى آله وصحبه، بمخاطبة سلطان فاس بخجل ووجل مقرًّا بسقطاته وغلطاته، مستلهمًا قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[34]، لقد اقتبس الصغير هذه الآية الكريمة بما اشتملت عليه من مؤكدات (إنّ – اللام – الجملة الاسمية)، ليعبر بذلك على مدى شعوره بالحزن تجاه الذي تنسبب فيه (سقوط غرناطة وزوال دولة الإسلام من الأندلس)، نتيجة لبعض تصرفاته بشكل خاطئ – لكنه في الوقت ذاته- يدفع عن نفسه وبشدة التهم التي رمته بالخيانة والتواطؤ مع النصارى، وتسهيل تسليم غرناطة لهم مقابل المكاسب الشخصية قصيرة الأمد، وليس لديه من دليل أو برهان يرد به على هؤلاء المتقولين إلا قول ابنة الصديق في حادثة الإفك عندما طلب منها النبي - ﷺ - أن تصدقه الحديث فقالت: (والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس، والله يعلم أني منه بريئة لأقول ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني، فأقول ما قاله أبو يوسف صبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون)[35]، والمعنى الذي يريد الكاتب إيصاله من خلال هذا التضمين؛ هو أنّ السفلة والمنافقين وترويجهم للشائعات المغرضة موجودون في كل زمان ومكان لم يسلم منهم حتى الأنبياء والرسل، فحديث الإفك الذي أشار إليه الكاتب كان المقصود منه النيل من عرض النبي-ﷺ- بالطعن في شرف زوجه عائشة – رضي الله عنها-، ولا يألو العقيلي جهدًا في سبيل إقناع ملك فاس ببراءة ملك غرناطة من تهم الكفر والإلحاد والخيانة، يقول: (أعد

نظرًا يا عبد قيس فليس الأمر على ما خيل لك ليس، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا، فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق)[36]، فهو لم يكن يعلم الغيب، ويستدل بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾[37]، ويطلب منه التقصي والتحري من أهل العقد والحل، للوقوف على حقيقة ما حدث، ويضمن المثل المعروف (عند جهينة الخبر اليقين)[38]، ويُحمِّل القضاء والقدر مسؤولية ما حلّ بغرناطة فيستعين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة والأمثال والأبيات الشعرية التي تؤكد حتمية القضاء والقدر، فأفعالنا وأقوالنا وما يقع من موت أو حياة أو نزع ملك أو حرب أو سلم كله بمشيئة الله – سبحانه وتعالى-، ويعمق المعنى بعجز بيت لأبي العتاهية وهو قوله: إن كنت أخطأت فما أخطأ الدهر[39]، ويجد في السنة النبوية خير معين على إتمام مراده، فيقتبس الأحاديث النبوية التي تؤكد حتمية القضاء والقدر مصرحًا تصريحًا مباشرًا بغرضه من هذه الاقتباسات، يقول: (ثم نرد من الأحاديث النبوية ما شئنا مما يسايرنا في غرضنا ويماشينا كقوله -r-: «**كل شيء بقضاء حتى العجز والكسل**»[40]، وقوله: (لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولوا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه)[41]، ويستعين بالقرآن الكريم لإتمام مراده، فيشير إلى قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾[42]، ويتخذ من احتجاج سيدنا آدم بالقدر دليله الساطع وبرهانه القاطع على أنّ ما حلّ بغرناطة قدر محتوم وقضاء لا مرد له، يقول: (وفي محاجاة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم، ويَرْخصُ عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوصم)[43]، وهو هنا يشير إلى قول النبي -ﷺ- : «**احتجّ آدم وموسى: يا آدم أنت أبونا – خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدّره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟**»، قال – ﷺ -: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»[44]، (أي غلبه بالحجة)، ويحاول الصغير أن يخفف عن نفسه وطأة الذنب فيستحضر حادثة سقوط بغداد للدلالة على حتمية القضاء والقدر، التي أودت بدولة عظيمة تمتعت بكل أسباب القوة والسيادة يقول: (فتلك بغداد دار السلام ومتبوأ الإسلام المحفوف بفرسان السيوف والأقلام، مثابة الخلافة العباسية... قد نوزلت بالجيوش ونزلت.. ودخلها كفار التتار عنوة

بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيفية أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية، وجرت الدماء في الشوارع والطرق، كالأنهار والأودية، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف.. فطاح عاصمها ومستعصمها ... وخربت مساجدها وديارها،... فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف)[45]، لقد صور واقعة سقوط بغداد معتمدًا على الاستعارة والتشبيه لتعظيم هول تلك الكارثة، ويستخدم الاستفهام الإنشائي المراد منه الإقرار والتسليم بالقضاء والقدر الذي لا يُصد ولا يُرد فيقول: (فأين تلك الجحافل حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر لم تجد ولا قلامة ظفر)[46]، فالصغير يرى في نهاية دولته نهاية مثالية إذا ما قورنت بكارثة سقوط بغداد محاولاً بذلك تبرير تصرفاته موظفًا المثل القاتل: (إنّ في الشر خيارًا)[47]؛ بمعنى أنه اختار أهون الشرين، فعندما حاصر العدو القشتالي غرناطة كان أمامه خياران لا ثالث لهما، إما الدخول في حرب خاسرة تكون نهايتها كنهاية بغداد، وإما التفاوض مع العدو الظافر حفاظًا على الأنفس والأعراض والأموال، فاختار الخيار الثاني بهداية وتوفيق الله – سبحانه وتعالى- يقول: (إذن فمن سلمت له نفسه التي هي رأس ماله، وعياله وأطفاله الذين هم أعظم آماله، وكلّ أو جلّ أو أقل رياشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تصعب واعتياض بعد ما ظنّ أن لا محيد ولا مناص فما أحقه حينئذ أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه على ما أسداه من رفده وخيره ومعافاته مما ابتلى به كثير من غيره)[48].

ويستعين بالحكم والأقوال المأثورة على إتمام مراده وتدعيم الفكرة التي يطرحها، فيقول: (الدهر غدار، والدنيا مشحونة بالأكدار، والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب، والدائرات تدور، ولابد من نقص وكمال للبدور، والعبد مطيع لا مُطاع، وليس يطاع إلا المستطاع، وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مداه انقطاع)[49]، ويتودد إلى ملك فاس فيدعي أنّ صاحب قشتالة قد عرض عليه الإقامة في مملكته وتحت حمايته، لكن إيمانه لم يسوغ له الإقامة بين ظهراني الكفر لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً**﴾[50]، ولقول الرسول – ﷺ –: «**أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تتراءى ناراهما**»[51]، وقد أراد الصغير بهذين الاقتباسين التأكيد على عدم مولاته للنصارى، كما يدعي أنه تلقى من المشرق كتبًا كريمة تدعوه إلى الانحياز إلى تلك الجنبات، لكنه آثر الجواز إلى

المغرب التي كانت ولا زالت داره ودار أجداده، وكذلك نزولاً عند وصية أجداده التي تلزمهم بالانضواء إلى بلاد المغرب وقت الخطر الداهم، ويشبه خروجه من الأندلس إلى المغرب بخروج الجنين من الظلمات إلى النور تفاؤلاً منه ببداية حياة جديدة في ظل ملك المغرب وتحت حمايته، ويتوسل بالتضمين لمدح الملك الوطاسي فيضمن أبياتا للشريف الرضي في مدح الخليفة القادر:

عطفا أمير المؤمنين فإننا

في دوحةِ العلياء لا نتفرَّق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت

أبدا كلانا في المعالي معرَق

إلا الخلافة ميّزتك فإنني

أنا عاطلٌ منها وأنت مُطوّقُ[52]

ويستدرك الشاعر على هذا التضمين بتضمين آخر؛ لأنّ المقام ليس مقام نديَّة أو تفاخر، فهو في موضع يحتم عليه الخضوع والتواضع، يقول: (لا بل الأحرى بنا والأحجى، والأنجح لسعينا والأرجى أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج، وينشد ما قال الشيزاري في ابن حجاج:

الناس يفدونك اضطرارًا

منهم وأفدِيك باختياري

وبعضهم في جوار بعضٍ

وأنت حتى أموت جاري

فعش لخبزي وعش لمائي

وعش لداري وأهل داري[53]

ويجد في الأمثال ضالته للمبالغة في مدح الوطاسي بالكرم والحمية وإغاثة الملهوف

والإيثار وحسن الجوار، وذلك لما تمتاز به الأمثال من إيجاز لفظ وإصابة معنى وحسن تشبيه[54]، يقول: (نرجو أن يكون ربنا الذي هو في جميع الأمور حسبنا قد خار لنا، حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحدانا إلى الاستجارة بملك حفي، كريم وفي، أعزّ جارًا من أبي داود[55]، وأحمى أنفًا من الحارث ابن عباد[56]، وإن أغاث ملهوفًا فما الأسود ابن قنان يذكر[57]، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر[58]، ويدور باقي الرسالة حول مدح بني مرين، توسل الكاتب في مدحهم بأبيات لشعراء مشهورين من مختلف العصور الأدبية، وهو لم يخرج بالأبيات المضمنة عن سياق المديح الذي قيلت فيه، لذلك جاءت متناسقة مع سياق الرسالة تناسقًا تامًا، من ذلك تضمينه ثلاثة أشطار من قصيدة للخرْنق أخت طرفة بن العبد، وهي قولها:

سم العداة وآفة الجُزُرِ النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزُرِ[59]

ويضمن أبياتًا للحطيئة، وكعادته يصرح تصريحًا مباشرًا بتضميناته المقصودة، يقول:

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمات المعوّل، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول كأنّما عناهم جرول، يقول:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدُّوا

وإن كانت النُّعماءُ فيهم جزوا بها

وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدُّوا

وتعذلني أبناء سعدٍ عليهم

وما قلت إلا بالتي علمتْ سعد[60]

وبقوله الوثيق معناه، البليغ معناه:

قومٌ إذا عقدوا عقدًا لجارهم

شدُّوا العِناج وشدّوا فوقه الكَرَبَا[61]

■ خاتمة البحث

بدراسة ظاهرتي الاقتباس والتضمين في رسالة الصغير توصلت الدراسة إلى الآتي:

1. دعم العقيلي رسالة الصغير بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة لما لهما من قدسية في النفوس مستنصرًا بما اقتبس لتقوية الفكرة التي يطرحها.
2. استفاد العقيلي في رسالته من تجارب الشعراء السابقين بمختلف عصورهم الأدبية، وكذلك زخرت بالأمثال العربية والأقوال المأثورة.
3. كان للتاريخ حضور خاص في هذه الرسالة، فقد أجاد الكاتب في استدعاء حادثة سقوط بغداد لتعزيز فكرية القدرية لإقناع المرسل إليه.
4. نجح العقيلي في استنطاق التراث، فأثبت كل ما يوافق موضوعه ويدعم الفكرة التي يلقيها لإقناع المرسل إليه، وما ساعده على ذلك سعة ثقافته وتعدد مشاربها وكثرة محفوظه من القرآن والسنّة النبوية، وإلمامه بكافة المعارف اللغوية والتاريخية، وغير ذلك مما زخرت به ثقافته الواسعة.
5. اقتباسات العقيلي، وتضميناته جاءت في معظمها حرفية، فاقتبس الآيات والأحاديث الشريفة كاملة، كذلك الأبيات الشعرية وما ساعده على هذه الاقتباسات والتضمينات الحرفية أنه لم يكن محكومًا بالقافية كما هي الحال عند الشعراء.

■الهوامش

1 - انظر عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الأسرة، 2001م، ج7، ص76.

2 - انظر المصدر نفسه، ص288.

3 - انظر المصدر نفسه، ص214.

4 - المصدر نفسه، ص202-203.

5 - المصدر نفسه، ص204.

6 - المصدر نفسه، ص204-205.

7 - المصدر نفسه، ص206.

8 - عنان، محمد عبدالله، أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس، مجلة الرسالة، العدد 31، 1934م.

9 - انظر مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار بني مصر، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سوريا، ص87-88؛ وانظر: المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب، تحقيق: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، ط1، 1419هـ1998-م، ج5، ص404-406.

10 - مجهول، نبذة العصر، ص89؛ كذلك ذكر المقري هذا الاتفاق السري بين ملك قشتالة وصاحب غرناطة في كتابه نفح الطيب، ج5، ص404-405.

11 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص231-232.

12 - انظر المصدر نفسه، ص332-235.

13 - نبذة العصر، ص103-104.

14 - المصدر نفسه، ص104-105.

15 - نفح الطيب، ج5، ص207.

16 - انظر دولة الإسلام في الأندلس، ج7، ص242-244.

17 - المصدر نفسه، ص244.

18 - انظر نبذة العصر، ص105، والمقري، النفح، ج5، ص408، وقد قام الأستاذ عنان لأول مرة بنقل محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية، انظرها في كتابه: دولة الإسلام في الأندلس، ج7، ص251-252.

19 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج7، ص251.

20 - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

21 - المصدر نفسه، ص256.

22 - ماثيوكار، الدين والدم (إبادة شعب الأندلسي)، ترجمة: مصطفى قاسم، أبوظبي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2013م، ص67.

23 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص275-276. نقلاً عن:

Lafuenie Alcantava: ibid. VIII. P. 80.

24 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص276-277.

25 - انظر أخباره وسيرته عند الناصري، أبو العباس أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، 1418هـ- 1997م، ج5، ص37.

26 - انظر: ترجمة العقيلي عند المقّري، النفح، ج5، ص428.

27 - المصدر نفسه، ص410.

28 - انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة (قبس)؛ وانظر: ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، 1979م، ج5، ص48.

29 - الخطيب القزويني، جلال الدين، الإيضاح، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ت)، ص426.

30 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1968م، مادة (ضمن).

31 - الصعيدي، عبدالعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17، 2005م، ص19.

32 - القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ط4، 1972م، ج2، ص84.

33 - الجعيثن، عبدالله، الاقتباس والتضمين (التناص) في الشعر الشعبي والفصيح، مجلة الرياض، العدد 15260، الاثنين 20 ربيع الآخر 1431هـ- 5 أبريل 2010م.

34 - سورة يوسف، الآية: 53.

35 - انظر الدمشقي، أبو زكريا يحي بن شرف، شرح صحيح مسلم، تحقيق: هاني الحاج وعماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، د.ت، ج17، ص107-108.

36 - المقّري، النفح، ج5، ص419.

37 - سورة يوسف، الآية: 81.

38 - الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، قدم وعلق عليه: نعيم حسن زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، المثل رقم: 2383، ج2، ص6.

39 - عجز بيت لأبي العتاهية وصدره: هي المقادير فلمني أو فذر. انظر: ديوان أبي العتاهية، شرحه وضبطه وقدم له غريد الشيخ، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ1999-م، ص368.

40 - ورد الحديث في صحيح مسلم (كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْسُ)، ولم يرد الكسل. انظر: صحيح مسلم، ج16، ص266، حديث رقم (2655).

41 - سنن الترمذي، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 1426هـ- 2005م، حديث رقم 2516، ج4، ص381.

42 - سورة الأعراف، الآية: 54.

43 - المقري، النفح، ج5، ص420.

44 - الدمشقي، شرح صحيح مسلم، ج16، ص202-203، حديث رقم (2652).

45 - المقري، النفح، ج5، ص420.

46 - المصدر نفسه، ص420-421.

47 - الميداني، مجمع الأمثال، ج1، ص40؛ ومعنى المثل (بعض الشر أهو من بعض)، ويجوز أن يكون الخيار الاسم من الاختيار أي في الشر ما يختار عن غيره.

48 - المقري، النفح، ج5، ص421.

49 - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

50 - سورة النساء، الآية: 97.

51 - سنن الترمذي، جمع وتحقيق: أحمد شاكر وفؤاد عبدالباقي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1424هـ2001-م،ج3، ص223.

52 - الحلو، عبدالفتاح محمد، الشريف الرضي (حياته ودراسة شعره)، هجر للطباعة والنشر، ط1، 1406هـ1986-م، ج1، ص104-105.

53 - المقري، النفح، ج5، ص423؛ وانظر: أبيات ابن حجاج عند الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ- 2000م، ج3، ص52.

54 - ابن سلام، أبو عبيد القاسم الهروي، كتاب الأمثال، تحقيق: عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط1، 1980م، ج1، ص34.

55 - تضمين للمثل (جارُ كجار أبي داود) ويعنون كعب بن مامة، الذي كان إذا جاوره رجل وهلك له بعير أو شاة أخْلَفَ عليه، فجاءه أبو داود الشاعر مجاورًا له، فكان كعب يفعل به ذلك، فضربت العرب به المثل في حُسْن الجوار، فقالوا: كجار أبي داود. انظر: الميداني، مجمع الأمثال، المثل رقم (848)، ج1، ص216.

56 - ورد المثل في مجمع الأمثال، أوفى من الحارث بن عباد. انظر: الميداني، المصدر المذكور، دار الجيل، بيروت، 14165هـ- 1996م، ج3، ص451.

57 - يقول الأساتذة الأجلاءّ (السقا والإبياري وشلبي): الذين قاموا بتحقيق كتاب (أزهار الرياض في أخبار عياض) تعليقًا على هذا الاسم في الهامش – لم نجد شيئًا عن الأسود ابن قنان هذا

في المضان التي رجعنا إليها. وورد في ذكره في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري في فصل المديح من كتاب المبالغة، قال أبو هلال رواية عن أبي الحسن أكبر مكي عن محمد بن ناجية الرصعاني، قال: كنت أحد من وقعت عليهم التهمة أيام الواقعة بمصر فطلبني السلطان طلبًا شديدًا حتى ضاقت عليّ الأرض برحبها! فخرجت إلى البلاد مرتادًا رجلاً عزيزًا منيع الدار أعوذ به وأنزل عليه حتى انتهيت إلى بني شيبان بن ثعلبة، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية منيعة، وإلى جانبه فرس مربوط...، فنزلت عن فرسي وتقدمت فسلمت على أهل الخباء، فرد على نساء من وراء السجف، فقالت إحداهن: اطمئن يا حضري، فقلت: وكيف يطمئن المطلوب أو يأمن المرعوب، وقلما ينجو من السلطان طالبه...، فقالت: يا حضري، لقد ترجم لسانك عن قلب صغير وذنب كبير، قد نزلت بفناء بيت لا يضام فيه أحدٌ، ولا يجوع فيه كبد، ما دام لهذا الحي سَبد أو لبَد. هذا بيت الأسود بن قنان، أخواله كلب، وأعمامه شيبان، صعلوك الحي في ماله، وسيدهم في فعاله، لا ينازع ولا يدافع، له الجوار وموقد النار. أبو هلال، ديوان المعاني، حققه وعلّق عليه: الدكتور النبوي عبدالواحد شعلان، مؤسسة العلياء، القاهرة، ط1، 1429هـ-2008م، وانظر: الأسود بن قنان، مجلة الرسالة، 27-10-1941م.

58 - يشير إلى صنيع كعب بن مامة الأيادي الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري فمات عطشًا، فضرب به المثل في الجود. انظر: البغدادي، عبدالقادر عمر، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1416هـ1996-م، ج9، ص590.

59 - الأبيات كما ورد في ديوان الخرنق:

لا يبعدن قومي الذين هم

سُمُّ العداةِ وآفة الجُرز

النازلون بكل مُعْتركٍ

والطيبون معاقد الأزر

انظر: ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان، (أخت طرفة بن العبد)، رواية أبي عمر بن العلاء، شرحه وحققه وعلق عليه: بشرى عبدالغني عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م، ص43.

60 - انظر: ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت- لبنان، د.ت، ص40-42.

61 - المصدر نفسه، ص21.